دَلائِل العدول الدّلالي في الخطاب القرآني

_قراءة أسلوبية لسوّر طسّم _

Evidence of semantic insinuating in the Qur'anic discourse
-A stylistic reading of Sor Tasm-

نصيرة كروشي[1]

أ.د. ميلود شنوفي[2]

تاريخ الإرسال: 2020/08/15	تاريخ القبول: 16 / 09 / 2020	تاريخ النشر: 30 / 03 / 2021

الملخص:

تستهدف هذه الدّراسة إكتناه بنية الخطاب القرآني لإستجلاء ما تنْمازُ به بعضًا من جوانب الإعجاز البياني للقرآن الكريم؛ بطريقةٍ تحتكم إلى آليات المقاربة الأسلوبية، وذلك عن طريق إنتقاء أبرز صور العدول الدّلالي، واستنطاق ما تُضمره من أنساقٍ دّالة، وما تُضفيه من إيحاءات ومعانٍ تسوقُ بدورها خصوصية البلاغة القرآنية. ناهيك عن الوقوف إزاء ماهية الأسلوبية؛ كنظريّة مستحدثة في الواقع النّقدي المعاصر، وطرح إشكالية تعدّد المصطلح والدّلالة لمفهوم العدول؛ كظاهرة أسلوبية لدى أبناء اللّسان العربي.

الكلمات المفتاحية:

الخطاب القرآني، البلاغة القرآنية، العدول الدّلالي، الأسلوبية، النّقد المعاصر.

المؤلف المرسل: نصيرة كروشي nassirakrouchi02@gmail.com

[1] - جامعة لونيسي علي البليدة02/مخبر الدراسات الأدبية والنّقدية.

en. krouchi@univ-blida2.dz / nassirakrouchi02@gmail.com

[2]- جامعة امحمد بوقرة بومرداس/ chenoufihoussem@gmail.com

المنارة للاستشارات

Abstract

This study is aimed at the structure of the Qur'anic discourse to clarify the aspects of the graphic miracle of the Qur'an, but in: a way that invokes the mechanisms of stylistic approach, by selecting the most prominent images of semantic justice, and questioning the semantic patterns that it contains, and the suggestions it gives. In turn, the meanings of shopping are the specificity of the Qur'anic eloquence. Not to mention what stylisticism is, as a theory developed in contemporary critical reality, and to present the problem of the multiple term and semantics of the concept of transgression among the sons of the Arab tongue.

***Key words**:*

Qur'anic discourse, Qur'anic rhetoric. semantic suppal, stylistic, contemporary criticism.

** *** ***

مقدمة:

المُتدبّر لكلام الرّحمن في محكمِ تنزيله المجيد يستشفّ من لّدنه أبلغ الآيات وأندّر السّمات التي تعكس الأبعاد الأسلوبية للبلاغة القرآنيّة، إذ تؤكّد بأنّ هذا الكتاب قد نزل بأفصحِ لسان وأبلغِ خطاب.

وبما أنّ هذه الدّراسة موسومة ب "دلائل العدول الدّلالي في الخطاب القرآني – قراءة أسلوبية لسوّر طسّم- فإنّنا اِشتغلنا على الإشكال الآتي: ما هي أبرز مقاصد العدول الدّلالي في الخطاب القرآني؟

واِستنادًا على تلكمُ الإشكالية آثرنا البحث حول المفاهيم الأساسية التي ترتكز عليها، أمّا الجانب الإجرائي قد اقتضى تلخيص الأبعاد الأسلوبية لصور العدول الدّلالي في سور طسّم.

1: بسط مفاهيمي:

إنّ الوقوف على أساسيات البحث العلمي لمَنَ المقتضيات العلميّة التي تُفرض على كلّ دارسٍ يصبو إلى التّأصيل المنهجي في أيّ علمٍ من العلوم، و بناءً على هذا يجمع أهل التّخصّص والدّراسات المصطلحية على أنّ: "المصطلحات تمثّل مفاتيح العلوم ونواة وجودها، ولا يمكن لها أن تؤسّس مفاهيمها ومعارفها دون ضبط هذا الجهاز المصطلحيّ الذي يؤسّس هوية كلّ علم(...) بل تتفاضل العلوم بمدى تطوّر جهازها المصطلحي ومسايرته للنّظريات العلميّة الخاصّة به."[1] .

وهذا ما يفضي إلى الاعتبار " أنّ لكلّ علم اِصطلاحًا خاصًّا به، إذا لم يعلم بذلك لا يتيسّر للشّارع فيه الاهتداء إليه سبيلاً ولا اِنفهامه دليلا."[2] و عليه، فإنّ عمليّة اِستقراء المفهوم وضبطه ضبطًا دقيقًا يقدِّم للباحث تصوّرًا واضحًا عن الأسلوبية؛ كمنهج نقدي معاصر، وعن العدول اللّغوي؛ كظاهرة أسلوبيّة بلاغيّة.

1.1- الأسلوبية؛ كنظرية نقدية وآليّة في معاينة الخطاب الأدبي:

إنّ هذا البديل الرّؤيوي الحداثي، المُعايِن للنصّ الأدبي، أو بالأحرى؛ "ذاك الوليد الألسني الذي احتضنته اللّسانيات وأينع في رحابها، فاستبشر به النّقد الأدبي واستضافه"[3]، قد أثبت حضوره في الواقع النّقدي المعاصر، مُستهدفًا دراسة الظّاهرة الأدبية واستنطاق ما يكتنز أبعادها الأسلوبية.

وهذا النّوع من المقاربات التي تسعى إلى تحقيقها هذه النّظريّة؛ هي تلك المعاينة العلميّة الدّقيقة التي لا تسقط من قيمة الأدب على عاتق الأسيقة الخارجية، وإنّما تنكبُّ جاهدةً على مُدارستها، و لا تفترض لنفسها المقدرة على مساءلة العمل الأدبي المتجرّد من جذوره. وإنّما - تُعرف بداهة – أنّها: "علم يدرس اللّغة في الخطاب الأدبي."[4] لكن لو نخصّ القول - بمفهومها الغربي- "أنّها علمٌ يدرس وقائع التّعبير اللّغوي من ناحية مضامينها الوجدانيّة. أي أنّها تدرس تعبير وقائع الحسّاسية المعبّرة عنها لغويًّا، كما تدرس فعل الوقائع على هذه الحسّاسية."[5] إذ أنّها تحاول تحديد السّمات الأسلوبية لتلك الوقائع اللّغوية من خلال النَّفاذ إلى محتوى المضامين الوجدانية والشّعورية.

المنارة للاستشارات

وإن حقّ لنا القول فإنّ الأسلوبية ممارسة- قبل أن تكون علمًا أو منهجًا- من أكثر الممارسات النّقدية المعاصرة قدرة على تحليل النّصوص الشّعرية والأعمال الأدبية بطريقة أدنى إلى العلميّة والموضوعيّة، أساسها البحث عمّ يميّز الإبداع لكلّ مؤلّف مدروس،[6] وغايتها تعرية النّص الأدبي، وإظهار خصائصه وسماته من حيث أنّه شكل فنّي يهدف صاحبه التّأثير في المتلقّي. دون أن تسلّم بأدبّية النّص وشعريته وإنّما تنحو منحى البحث والمناقشة والمساءلة قبل الاطمئنان إلى نتيجة من نتائج التّحليل الأسلوبي.[7]

ومن هذا المعطى الفكري، نخلص إلى أنّ الأسلوبية نظريّة نقديّة تهتمّ بدراسة الأثر الفنّي دراسة موضوعية، لذلك تُعنى "بالبحث عن الأسس القّارة في إرساء علم الأسلوب،"[8] مُنطلقة من فكرٍ مبدئي أساسه أنّ الخطاب الأدبي بنية ألسنيّة "لا تنفصل فيه لغة الأثر الأدبي عن مضمونه"[9]؛ بحيث تسعى إلى اِكتناهه وكشف سماته الجمالية عبر تلك البنى الألسنية- صوتية، صرفية، تركيبية، دلالية...-

2.1 العدول الأسلوبي؛ بين التّعدّد المصطلحي وإشكالية الدّلالة:

إذا ما حاول الباحث إدراك هاته المسألة والتّعمّق فيها يُسْتَبْيَنُ له أنّ " دائرة المفاهيم والرّؤى الفكرية حول معاني العدول قد توسّعت، وتكاثفت مِمّا جعله يكتسب تنوّعًا دلاليّا ومعجميّا يمنحه خصوصيّة التّميّز، باختراق قوانين اللّغة في إطار ما يقرُّه الاستعمال اللّغوي وتجاوز حدود المألوف بحسب ما تؤدّيه وظيفة الكلمة، "[10] حسب موضعها في السيّاق .

لكن مبدئيًّا، نشير إلى أنّ المتصفّح للمعاجم اللّغوية يُلفي أنّ لِمادة (ع.د.ل) معانٍ عدّة تختلف أحيانًا و تتواشج أحيانًا أخرى. حيث ذكر الخليل (173)هـ أنّ:" عدل الشّيء نظيره... والعدل أن تعدل الشّيء عن وجهه فتميله... وعدلت الشّيء أقمته حتى اعتدل... والعدل: الطّريق... والانعدال: الإنعراج." [11] أمّا ابن منظور(711هـ) فقال: "عدل عن الشّيء، يعدلُ عدلًا وعدولًا حادَ، وعن الطّريق جارَ، وعدلَ إليه عدولاً رجعَ، وماله معدل ولا معدول أي مصرف"[12]. و أبان صاحب المعجم الوسيط عن معناه بقوله: "عدلَ عدلًا وعدولًا مالَ، ويُقال عدلَ عن الطّريق حادَ، وإليهِ رجعَ(...)." [13]

وعليه؛ فإنّ مادة (ع.د.ل) في متن تلك المعاجم تتأوّل معاني؛ الميل، الانحراف، الانصراف، الحيّاد والخروج...

بيد أنّ النّاظر لما جاءت به الثّقافة العربية الأصيلة عند أسلافنا الأقدمين يستشفّ أنّ هذا المصطلح قد ورد بصيّغ عدّة؛ منها: المجاز، الالتفات، الخروج عن القاعدة، الانتهاك...حيث ذكر ابن الأثير (360ت ه) "أنّ العدول عن صيغة من الألفاظ لا يكون إلّا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخّاه في كلامه إلّا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطّلع على أسرارها، وفتّش عن دفائنها، ولا تجد ذلك في كلّ كلام، فإنّه من أشكل ضروب علم البيان، وأدقّها فهمًا، وأغمضها طريقًا"[14]. فالعدول من هذا المنظور لا يكون اعتباطًا وإنّما انتقاءً لخصوصية يفرضها مقتضى الكلام.

أمّا ابن جني (392ه) فاعتبره كلّ قولٍ عَدلَ عن الحقيقة إلى المجاز، قائلًا: "الحقيقة ما أقرّ في الإستعمال على أصل وضعه في اللّغة، والمجاز ما كان بضدّ ذلك، وإنّما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي الاتّساع و التّوكيد والتّشبيه، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة."[15] ونلفي كذلك عبد القاهر الجرجاني (471ه) قد ضمّ هاته الظاهرة الأسلوبية إلى محاسن البلاغة وفنونها موضّحًا: "أنّه إذا عدل باللّفظ عمّا يوجبه أصل اللّغة ، وصف بأنّه مجاز، على معنى أنّهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أوّلًا ".[16]

لذلك، فالمتتبع لظاهرة العدول عند العرب الأوائل يلحظ أنّها قد تجسّدت في تلك الوقائع اللّغوية البلاغية؛ كالمجاز والكناية و المشباهة ...

أمّا أبناء اللّسان العربي الحديث قد توسّعوا في هذا النّوع من الظّواهر؛ واعتبرت من أبرز القضايا النّقدية التي شغلت تفكير الدّارسين من النّقاد و الألسنيين، وفي ذلك يقول عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي:" هذا العدول قد عبّر عنه في الدّراسات الحديثة بمصطلحات عديدة منها الانحراف، الانزياح، الاختلال، الانتهاك، التّجاوز، المخالفة اللّحن، خرق السّنّن، الإطاحة، التّحريف(...)"[17]

أمّا عبد السّلام المسدّي فقد رجّح أنّ عبارة الانزياح هي "ترجمة حرفية للّفظ (écart) على أنّ المفهوم ذاته يمكن أن نصطلح عليه بعبارة التّجاوز، أو نحيّ له لفظة عربية

المنارة للاستشارات

استعملها البلاغيون في سياق محدّد، وهي عبارة العدول، وعن طريقة التّوليد المعنوي قد نصطلح بها على مفهوم العبارة الأجنبية ."[18] ناهيك أنّه قد أورد في مؤلّفه مجموعة من تلك المصطلحات الدّالة عليه مبيّنا ترجمته و صاحبه، كالتّالي: [19]

المصطلح	المؤلّف	المصطلح	المؤلّف
الانزياح L'écart	فاليري	الشّناعة Le scandale	كوهن
التّجاوز L'abus	يفاليري	الانتهاك :Le viol	كوهين
الانحراف La déviation	سبيتزر	اللّحن L'incorrection	تودوروف
الاختلال La distorsion	ويلك ويوارين	العصيان: La trangression	آراجون
_ الإطاحة La subvertion	باتيار	_ التّحريف: L'altératio	جماعة مو
المخالفة L'infraction	يتيري	_ خرق السّنن: La violation des normes	تودوروف

وقد أشار في مقام آخر أنّ هذه الظاهرة الأسلوبية – في بعض حقيقتها – هي: "مفارقات تنطوي على انحرافات، و مجاذبات بها يحصل الإنطباع الجمالي." [20]

و عمومًا فمصطلح العدول - بمفهومه التّراثي و الحديث - هو خروج عن الحيّز الأصلي للقاعدة اللّغوية وإنتهاك للمعيار المألوف، لكن بغرض تحقيق مقاصد فنّية بلاغية يرمي إليها؛ كالتّوسّع، الإيجاز، التّقريب، المشابهة...

2- البعد الأسلوبي للعدول الــدّلالي في الخطاب القرآني – سور طسّم أنموذجًا-

قيل أنّ الحضارة الإسلامية هي حضارة نصّ، لأنّها بُنيت على نصّ مقدّس هو القرآن الكريم، و أهمّية النّصوص والكتب المقدّسة في تاريخ الأمّم والشّعوب ليست حِكرًا على الأمّة الإسلامية وحدها ولكن اِهتمام الأمّة الإسلامية بهذا الكتاب المجيد لا يُضاهيه اِهتمام أمّة من الأمم فقد كان القرآن وسيلة لولادة الأمّة وسببًا لتأسيس حضارتها، ومازال قادرًا على أداء أدوار عدّة في حياة الأمّة لو أنّها أتقنت العودة إليه. وفهمت خطابه حقّ فهمه.[21]

والقرآن الكريم هو "كلام اللّه المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه وفي علومه وحكمه وفي تأثير هدايته وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلية".[22]

و ما توصّلت إليه الدّراسات البلاغية في توصيفها لخطابه: " أنّه بديع النّظم عجيب التأليف متناهٍ في البلاغة إلى الحدّ الذي لا يعلم عجز الخلق عنه (...) فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمّن للإعجاز وجوه منها: ما يرجع إلى الجملة، وذلك أنّ نظم القرآن على تصرّف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومُباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوبٌ يختصّ به ويتميّز في تصرّفه عن أساليب الكلام المعتاد. فإذا تأمّله المتأمّل تبيّن بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم أنّه خارج عن العادة، وأنّه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميّز حاصل في جميعه"[23]. ومنه فالخطاب القرآني هو خطاب بليغ معجز في نظمه وتنوّع أساليبه.

والعدول القرآني – بوصفه ظاهرة أسلوبية بلاغية- يمثّل تجاوزًا أسلوبيًّا اِستثنائيّا فريدًا، بليغ القول، لما يحمله من معان جمّة، ودلالات عميقة، وبما يحظى به من اتّساع في الفكرة وبُعدًا في الرّؤية وقوّة في المأخذ والوقع ...

وبما أنّ هاته المقاربة تتغيّا الوقوف على ذلكم الأسلوب – بالتّحديد - فقد آثرنا تلخيصه على النّحو التّالي:

1.1.2.الإستعارة القرآنية : عادة ما تُدرك الإستعارة على أنّها الصّيغة الأكثر جوهرية للّغة المجازية، واللّغة المجازية -إن صح الوصف- هي حمل على وجه آخر.[24] ، والمراد بمعناه؛ اِستعمال لفظ في غير ما وُضع له لعلاقة المشابهة.[25] لأغراض بلاغيّة بيّنة.

المنارة للاستشارات

والمتأمّل للخطاب القرآني يستشفّ أنّه زاخر بهذا النوع من الأساليب لما له من تأثير على النّفوس في قوله تعالى :

{ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ (116) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (118) } .[26]

تبيّن هذه الآية أنّ قوم نوح قد كذّبوه و واصلوا استكبارهم وقالوا إن لم تنته ممّا تقول لتكوننّ من المشتومين أو المرميّين بالحجارة، فدعا اللّه بأنّ يحكم بينهم وبينه بما يستحقّه كلّ واحد منهما.[27] فقوله تعالى { فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً } جاءت هذه الآية على سبيل الاستعارة التّبعية فقد استعار المفتاح للحاكم والفتح للحكم لأنّه يفتح المتعلّق من الأمر " [28] و هذه الاستعارة تضمر دعاء نوح لربّه سبحانه تكمن بلاغتها في تجسّيدها لهذا الأسلوب الطّلبي من صورة معنوية إلى صورة حسّية مدركة، تحثّ على تعجيل القضاء، فينجّي الذين آمنوا ويهلك الطّاغين.

و حينما خاطب المولى عزّ وجل محمّد عليه الصلاة والسّلام قال: { وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلاَقْرَبِينَ (213) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ إِتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (214) }[29] أي؛ "أنذر وحذّر يا محمّد الأقرب منهم فالأقرب من قومك من عذاب ينزّل عليهم. وليّن جانبك وتلطّف" [30]، وقد جاء هذا الأمر على سبيل الاستعارة التصريحية ."[31] حيث شبّه التّواضع واللّين بخفض جناح الطّير، إن أراد أن ينحطّ خفض جناحه. وتكمن القيمة التربوية لهاته الصّورة في أنّ تبليغ أي رسالة يقتضي اللّطف واللّين والتّواضع.

وحينما وصف اللّه سبحانه في كتابه حال الشّعراء قال فيهم : { وَالشُّعَرَآءُ يَتْبَعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ (223) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (224) } [32] أي من يجاريهم و يسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون الضّالون عن السّنّن الحائرون فيما يأتون وما يذرون لا يستمرون على وتيرة واحدة في الأفعال و الأقوال لا غيرهم من أهل الرّشد المهتدين إلى طريق الحقّ الثابتين عليه. و ترى الشّعراء في كلّ أودية القيل والقال وفي كلّ شعب من شعب الوهم والخيال وفي كلّ مسلك من مسالك الغيّ والضّلال يهيمون." [33] وجاء هذا التّعبير القرآني على سبيل الاستعارة التّمثيلية؛[34] وتعتبر هاته الاستعارة من أبلغ الاستعارات في توصيفها لحال الشّعراء في إفراطهم لدينهم، كالتّائه الضّال لطريقه.

وبما أنّ هذا الكتاب العظيم يحمل نبأ ما قبلنا وما بعدنا فقد قال فيه سبحانه: { إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (78) وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (79) }.[35] من جملته ما اختلفوا في شأن المسيح و تحزّبوا فيه أحزابا وركبوا متن العلوّ والغلوّ في الإفراط والتّفريط"[36]، وقد عبّر عن ذلك عن طريق الاستعارة المكنية ، إذ شبّه القرآن بالنّاطق الواعظ الذي يقصّ القصّص، وهذا يوحي أنّ القرآن الكريم نزل ليكون هدى ورحمة للعالمين .

و ممّا تقدّم نلحظ أنّ للاستعارة القرآنية أسرارًا بلاغيّة تكمن في تقويّة المعنى وتوليده، فهي تمنح القول قوّة وتضفي عليه حسنًا وجذبًا لما تحمله.

2.2. المجاز القرآني: في سياق الحديث عن جدلية الحقيقة والمجاز عقّب عنهما عبد القاهر الجرجاني مبيّنا : "أنّ الحقيقة ما استعمل في موضعه(...) بينما المجاز هو كلّ كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثّاني والأول فهي مجاز".[37]

و بالرّجوع إلى متن الخطاب القرآني نلحظ جملة من الأساليب التي تدخل في حيّز اللّغة المجازية. ومن معالم التّوظيف المجازي -القرآني - نلفي قوله تعالى: { وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (208) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (209) }[38] ؛ أي أنّ كلّ تلك القرى المهلكة إلّا ولها منذرين قد أنذروا أهلها"[39]، وجاء هذا على نحو المجاز المرسل لأنّ المقصود هنا هو أهل القرية [40]. وهذا الأخير يؤكّد أنّه ما من قوم أهلكه اللّه إلّا أرسل له رسلا من قبل منذرين بما أوحاه اللّه إليهم . لكن بعدما طغوا قد حقّ فيهم الهلاك.

و ذكر اللّه سبحانه في قصة موسى عليه السّلام : { قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ (35) } [41]، أي سنقوّي أمرك، ونعزّ جانبك بأخيك، ونجعل لكما حجّة قاهرة لا يكون لهم سبيلاً في الوصول إليكما بسبب إبلاغكما لآيات اللّه.[42] و يمكن اعتبار هاته الصّورة مجازًا مرسلًا – من إطلاق المسبب لأنّ شدّ العضد يستلزم شدّ اليد وشد اليد مستلزم القوّة - [43] وقد زادت المعنى قوة في تأكيد أنّ اللّه خير ناصر ومعين أمام جبروت فرعون وأنّ لن يمسّهما سوء بذكر آيات اللّه وما جاءت به من الحقّ.

المنارة للاستشارات

وقال أيضًا مخاطبًا محمّد عليه الصلاة والسّلام و مذكّرًا إياه: { وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ (45)}[44] ؛ أي خلقنا قومًا من بعد موسى فمكثوا زمنًا طويلًا ونسوا عهد اللّه وتركوا أمره، وأنت يا محمد ما كنت مقيمًا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكن نحن أوحينا إليك ذلك.[45] وفي قوله : { أَنشَأۡنَا قُرُونٗا } هو مجاز عقلي لأنّ المراد هنا هو الأمّم في حدّ ذاتها.[46]، هذا التّوظيف المجازي قد صوّر مدى مكوث هذا القوم وتعميرهم في الأرض حتى أخلفوا وعد اللّه ونسوه.

وقال أيضًا: {وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ } [47]

أي أرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجّة و لتقطع عذرهم إذا جاءهم العذاب من اللّه بكفرهم ، فيحتجّوا بأنّهم لم يأتهم رسول ولا نذير.[48] وقوله تعالى:" بما قدّمت أيديهم" متضمّن مجازًا مرسلًا ومعناه بما قدّموا من أعمال وهو من باب إطلاق الجزء و إرادة الكل[49] حيث جعل هذا النّوع من التّصوير القرآني يؤكّد أنّ الجزاء على حسب ما قدّمت الأنفس من أعمال بخيرها وشرّها.

ومنه فالتّصوير البياني بالمجاز القرآني من أبلغ وسائل التّعبير لأنّها أشدّ تأثيرًا وأقرب وقعًا في الأنفس ولا يُستعمل إلّا حسب ما يقتضيه المقام. إذ يخلق صورًا يعجز عن تجسيدها الاستعمال الواقعي المباشر. لذلك تراه يميل إلى التّوظيف المجازي.

3.2. الكناية القرآنية: هي ما اقتضى التّعبير فيها بالإيحاء لا التّصريح؛ أي أنّها لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى.[50] ومن صور التّصوير الكنائي في الخطاب القرآني نلفي قوله تعالى :{ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ(03) } [51]؛ أي لو شئنا لأنزلنا آية تضطرّهم إلى الإيمان قهرًا، ولكنّا لا نفعل ذلك؛ لأنّا لا نريد من أحد إلّا الإيمان الاختياري[52]، وقوله سبحانه:" فظلّت أعناقهم لها خاضعين." هي كناية عن الانقياد والخضوع، وهذا تصوير كنائي لعدالة إلهية اقتضت أن تحصل الهداية اختيارًا لا طوعًا وفيه ضرب من التّهديد والتّخويف لمن لم يؤمن باللّه، وتمثيل لحال الخاضعين لأمر اللّه والمنقادين له إذا قُضيَ أمره.

وذكر سبحانه واصفًا كتابه و ردّ المشركين: { فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (13) }. [53] أي أنّهم جحدوا، وانقلبوا صاغرين عن آيات اللّه وفي قوله: "آياتنا مبصرة"؛ هذا تصريح كنائيّ عن آيات اللّه أنّها جاءت واضحة، صادقة و بائنة. لكنهم اعترضوا عنه وقالوا عنه سحر مبين.

وفي قصّة قارون و هلاكه قال سبحانه وتعالى عن قومه الذين شهدوا كيف خسف به اللّه: { وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ (84) } [54]

أي أنّهم في السّابق تمنوا أن يؤتى لهم ما أوتي لقارون من رزق وفضل عظيم، لكن لمّا خسف بهم قالوا: { وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ } ؛ فالمال ليس بدالٍ على رضا اللّه تعالى وإنّما قسّمه لحكمة تامّة وحجّة بالغة. [55] وفي قوله " الذين تمنّوا مكانه بالأمس كناية عن الزمن الماضي القريب". [56] فبالأمس كانوا يتمنون رزقه واليوم بعدما عرفوا قدرة اللّه، وأنّه سريع الانتقام ولطيف بالتّائبين قد استيقنوا أنّ اللّه يقسّم الرّزق لمن يشاء ، ولو لم يمنن عليهم لخسف بهم كما خسف بقارون وملئه.

ومنه فالكناية القرآنية شأنها شأن الفنون البلاغية الأخرى، حيث تعمد إلى حمل معاني الألفاظ من موضعها الأصلي إلى معنى آخر يستثير به المتلقّي ويجرّه إليه، واجتياز الحقيقة هنا يتم بالإيحاء و التّصوير لا بالتّصريح المباشر.

- خاتمة:

ومُجمل القّول ومُنتهاه، إنّ العدول القرآني يمثّل تجاوزًا فنّيًّا بلاغيًّا - قد بلغ علوّ البلاغة بفنونها وضروبها- فهو تركيب لغوي وانتقاء أسلوبي ينماز بالتّكثيف الإيحائي والتّوليد الدّلالي. يستدعي منك التّدبّر، والتّأمّل العميق، القّائم على متابعة التّفسير القرآني و تأويله.

- تعتبر تلكم الصّور البيانية وجهًا من وجوه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم؛ حيث تسهم في تقوية الأداء اللّغوي بالتّقريب، التّشخيص، المشابهة، الإيجاز، والإيحاء... وهذا الانتقال الدّلالي من مقام إلى مقام لا يكون إلا لضرورة اقتضتها البلاغة القرآنية متجاوزة التّصريح المباشر.

المنارة للاستشارات

ومنه فالمتأمّل للبناء القرآني يلحظ أنّ كلّ وحدة من وحداته الكلامية تخضع لميزان دقيق ومتزّن يشكّل كلًّا متكاملًا في تأليفه وترتيبه، فتجدّ الحرف في موضعه، والكلمة في مقامها، والجملة في سياقها، وكأنّه نصّ واحد فصّل فأحكم تفصيله من لدن حكيمٍ خبير.

الهوامش:

[1]- خليفة الميساوي، المصطلح اللساني و تأسيس المفهوم، دار الأمان، ط1، الجزائر، 2013م، ص15

2-محمّد علي التّهانوي، كشف اصطلاحات و الفنون و العلوم، تح: علي دحروج، دار الخلافة العلية، ط1، لبنان 1899م، ج1، ص1.

3- عبد السّلام المسدي، التّضافر الأسلوبي وإبداعية الشّعر: مجلّة النّقد الأدبي، فصول، مج 05، مصر العدد الأول، ديسمبر 1982،ص 107

4- منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، ط01، 2002، ص27

5 - عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدّار العربية، ط03، تونس، 1998م، ص 41

6-عبد الهادي الطرابلسي، تحاليل أسلوبية، دار الجنوب، ط01، تونس،1992م،ص 7

7-أيوب جرجريس العطيّة، الأسلوبية في النّقد العربي المعاصر، عالم الكتب، ط01،الأردن، 2014م، ص34

8- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص34

9-المرجع نفسه، ص34

10-خيرة حمرة العين، شعرية الإنزياح دراسة في جمال العدول، دار اليازوري، ط01، الأردن،2011م، ص 07

11 -الخليل الفراهدي، العين، تح: مهدي المخزومي، دار الرشيد، مطابع كويتا تايمز، بغداد، 1928، مادة عدل، ص160.

12- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التّراث العربي د.ط، بيروت، 1958، مادة عدل، ص 234

13- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرّسالة، ط02، بيروت، 2005م، ص1030

14- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر، تح: بدوي طبانة، دار نهضة مصر، ط02، ج02، الفجالة- القاهرة، ص168.

15- عثمان بن جنيّ، الخصائص، عالم الكتب، ط04، مصر، 2010م، ج 02، ص444

16- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: محمود شاكر، دار المدني، دط، جدة،دت، 365

17-عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، الإعجاز الصّرفي في القرآن الكريم، المكتبة العصرية، ط01، بيروت، 2002، ص142

18- عبد السّلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص100

19- المرجع نفسه، ص100

20- المرجع نفسه، ص102

21- محمّد باقر سعيدي روشن، منطق الخطاب القرآني، تر: رضا شمس الدين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط01، بيروت، 2016م، ص11

22- مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النّبوية، دار الكتاب العربي، ط09، بيروت –لبنان، 1973م، ص17.

23- أبي بكر محمّد بن الطيّب الباقلاني، إعجاز القرآن، دار المعارف،دط، مصر، 1971م، ص37-38

24- تيرنكس هوكس،الاستعارة، تر: عمرو زكريا عبد اللّه، المركز القومي للتّرجمة، ط01، القاهرة، 2016م،ص12.

25 - سور حمّد علي زكي صبّاغ، البلاغة الشّعرية في كتاب البيان والتّبيين، المكتبة العصرية، ط01، بيروت، 1998م، ص246

26- سورة الشّعراء، الآية 116-117-118

27 -محمّد أبي السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التّراث العربي، دط، بيروت، لبنان، ج5، دت، ص255.

28 -محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، دار الآفاق العربية، ط01، القاهرة، 2002م، ص212

29- سورة الشعراء، الآية 213-214

30 - محمّد أبي السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم، ص268-269

31 - محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ص212

32- سورة الشّعراء، الآية، 223-224

33- محمّد أبي السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم ،270-271

34- محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم،ص212

35- سورة النمل، الآية 78-79

36- محمّد أبي السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم، ص299

37- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 304

38- سورة الشّعراء، الآية208 - 209

39 - محمّد أبي السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم، ص266

40 - محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ص213

41- سورة القصص، 35

42 -ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنّشر، ط01، السعودية، 1997م،ج06، ص236

43- محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم،ص225

44- سورة القصص، الآية 45

45 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص240

المنارة للاستشارات

46 - محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم،ص225

47- سورة القصص، الآية 47

48 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص241

49- محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ص225

50- محمّد علي زكي صبّاغ، البلاغة الشّعرية في كتاب البيان والتّبيين، ص 251

51- سورة الشّعراء، الآية 04

52 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص 135

53- سورة النّمل، الآية 13

54- سورة القصّص، الآية 82

55 - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ص 257

56 - محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ص 225.